الفصل السادس

جهاده (سنة ١٨٩٧م)

مرضه ثم إبلاله

أنهك المترجم نفسه في الجهاد خلال سنة (١٨٩٦م)، فاستقبل عام (١٨٩٧م) وهو على فراش المرض، من كثرة أعماله ورجلاته، وقد أبل من مرضه في منتصف يناير من تلك السنة، فوصف له الأطباء مدينة حلوان؛ التماسًا للراحة وتبديلًا للهواء، فقضى بها مدة أسبوعين استجم فيهما صحته، وما إن عادت إليه قواه حتى عاد إلى ميدان الجهاد والنضال.

نداؤه إلى ألمانيا

فقد وجه نداءً مؤثرًا إلى الأمة الألمانية بتاريخ (٢٧ يناير سنة ١٨٩٧م) نشرته جريدة (برليتر تاجبلاط) -من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية- شرح فيه القضية المصرية وطلب إلى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر في نضالها، وعلقت عليه الجريدة بقولها:

«إنَّ هذه الدعوة الصادرة عن مصري وطني غيور ستزيد بلا شك في ميل ألمانيا إلى الأمة المصرية وعطفها عليها، نعم إن هناك فرقًا بين ميل أمة إلى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية، ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم في اهتضام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذين هم أقرب الناس إلينا، فيفهم جيدًا كيف أن مديري السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية في ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن في استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها، واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية، قليلة الاحترام، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت في حينها وصدرت في أحسن وقت سياسي مناسب لها».

رحلته في أوربا (مارس سنة ١٨٩٧م)

واعتزم السفر إلى أوربا في (مارس سنة ١٨٩٧م) ليطوف عواصمها ويرفع فيها صوت مصر، متابعًا جهاده في سبيلها، فبرح العاصمة يوم (الجمعة ١٢ مارس) وأبحر من الإسكندرية في اليوم التالي[١]، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره وكان من بين المودعين أمريكي اسمه المستر (جولدنيك) جاء خصيصًا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده في سبيل حرية بلاده، وكان واسطة التعارف بينهما أحد كبار الموظفين الوطنيين بالإسكندرية، فانتهز الأمريكي فرصة تعرفه به وألقى عليه الأسئلة الآتية:

أولًا: هل لك أن تتكرم علي بإجمال السبب الذي دفعك إلى المناداة بحرية مصر؟

ثانيا: إذا لم تستطيع فرنسا خاصة وأوربا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء، فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك العاملين؟

ثالثًا: هل لك من حاجة في أمريكا لأقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم؟

فأجابه المترجم بإسهاب على أسئلته الثلاثة بما نوجزه فيما يلي[٢]:

قال في رده على السؤال الأول:

«لما كنت مصريًّا صميمًا رأيت من واجبي أن أقف قلمي ولساني على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام، وإني سأبقى ابنها البار الوفي حتى آخر نفس أردده في هذا العالم».

---

(١) ذكرت «الأهرام» ما يلي بعددها الصادر في ١٣ مارس سنة (١٨٩٧م): «سافر اليوم على الباخرة النمساوية حضرة الوطني مصطفى أفندي كامل، وهو مسافر توًّا إلى فيينا، وسيذهب منها إلى بودابست وبرلين وباريس جريًا على خطته في خدمة القطر، فنرجو له كل نجاح وتوفيق في هذه الخدمة الجليلة».

(٢) نقلًا عن كتاب «سيرة مصطفى كامل) لعلي بك فهمي كامل، ص٣١٧.

وقال ردًّا على السؤال الثاني:

«إننا نبني نجاحنا في عملنا على أمرين؛ الأول خارجي وهو انتهاز الحوادث الدولية، والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بأخطاء الاحتلال الإنجليزي لنرقى بالعقول ونبغض الغاصبين إلى القلوب، وبذلك تقترب الأمة شيئًا فشيئًا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسمًا واحدًا لا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزاءه».

وقال جوابًا على السؤال الثالث:

«أشكر لك كثيرًا الخدمة التي عرضتها عليَّ بأمريكا، وأملي أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الأوربية[1] حتى نسمعكم صوتنا في دياركم بنفس النغمة التي أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الإنجليزي، وكذلك أؤمل إلا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا، وأن يكون الإنجليز أبقى على كرامتهم من أن تلونها بعد تلك الأيمان والعهود الكبيرة أيدي بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلًا لعشر معشاره».

فأعجب الأمريكاني بهذه الأجوبة السديدة وقال للفقيد: «بارك الله في شعب أنت منه، ولترق أمة هذه مبادئها وهذا صراطها، فاعمل ودع غيرك يعمل، فإن ما أخذ لا يرد التماسًا، ولكن بالصوت العالي والنخوة التي تقلق الظالم في غدوه ورواحه، واعتقد أن الإنجليز أسهل الأمم في رد الحقوق متى وجدوا من ذويها الإباء والكرامة والشمم».

(١) يقصد مبدأ منرو الذي يقضي بعدم التدخل في المسائل الأوربية.

قصد المترجم إلى تريستا ومنها إلى فيينا، ومكث بها سبعة أيام اتصل في خلالها بكبار السياسيين والصحفيين، ومن هناك أرسل إلى مدام جولييت آدم كتابًا قال فيه:

«فيينا في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧م

سيدتي المديرة المبجلة:

أستميحك الإذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل، وصلت إلى هنا من مصر وفي عزمي أن أكون بباريس بعد جولة في بودابست وبرلين -في منتصف شهر إبريل- وليس لدي وقت يسمح لي أن أحادثك في حالة وطني العزيز التعسة إلى آخر درجات التعس، والتي ما كنا نظن أنه واصل إليها. إن الإنجليز يعملون في وادي النيل كل ما يريدون، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوربا، وعلى الخصوص وأأسفاه من فرنسا؛ لأن خطة فرنسا في هذه الأيام قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلمًا أشد مما كان، والذي زاد الطين بلة أن هذه الخطة التي كلها إخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبًّا لبلدكم الجميل الكريم».

حديثه مع الدكتور رزنر

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزنر) النائب النمساوي والطبيب الشهير، وحادثه حديثًا نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق إلى أنحاء العالم، وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمساوي، وأجاب عليها النائب في حديثه، وقد دلت الأسئلة وطريقة إلقائها على كياسة الفقيد في الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية.

سأله المترجم: ماذا تكون خطتكم إذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث؟

فأجابه النائب النمساوي بما خلاصته أن الكثيرين من زملائه أعضاء البرلمان يميلون إلى طرح المسألة المصرية على بساط البحث رغم العلائق الودية التي بين

الحكومة النمساوية وحكومة الملكة فكتوريا، ومتى طرحت نكون في جانب العدل الذي يقضي بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول أجمع؛ لأن أهمية مصر بالنسبة لأوربا ماثلة في قناة السويس التي ترتبط مصالح أوربا الصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها، وليس لأوربا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق إلا قناة السويس، وعدا ذلك فإنه لا يصح أن تتملك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم أجمع وتصبح سيدة عليه تفعل ما تشاء، وخصوصًا الدولة الإنجليزية، فإنه فضلًا عن كونها أقوى دولة بحرية، فإنها كذلك أكبر دول العالم التجارية.

وانساق الحديث إلى اشتداد التزاحم بين ألمانيا وإنجلترا، فسأله الفقيد:

«هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وإنجلترا في يوم من الأيام؟».

فأجابه النائب النمساوي:

«إني لا أعرف درجة الأمة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها؛ ولكني أؤكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير في طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة؛ كان لها على كل حال الفوز المأمول، سواء حدثت بين الدول حوادث أم لم تحدث».

وليمة المترجم في فيينا (٢٤ مارس سنة ١٨٩٧م)

أراد مصطفى كامل أن يسمع صوته أكبر عدد ممكن من رجال السياسة في النمسا، فأقام وليمة كبرى في فندق (متروبول) مساء الأربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧م، دعا إليها نيفًا وثمانين مدعوًّا من النواب والصحفيين، ومنهم الدكتور «رزنر» المتقدم ذكره، وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعي وألقى فيهم الخطبة الآتية:

«إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصري منهم جاء بلادكم العزيزة أكثر من مرة، واتصل برجالكم المعدودين الذين أنتم من صفوتهم، سائلًا بكل إلحاح وحق نصرة مسألتنا التي تنحصر في كلمتين «احتلال مؤقت لا يمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عامًا؛ أي ثلاثون ستة أشهر»، إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلًا فلا بد أن يكون لهذا الطول حد، وإذا كان الكذب شعار المتمدنين، فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصبين كما يتهمنا الإنجليز؟! إن لي الحق أيها السادة إذا قلت: إن العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق؛ لا عصر عدل وإنصاف ورد الحقوق إلى أهلها. إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة الاعتدال، ولهم مآثر على العالم أجمع، إن أنكرها الإنجليز فلا ينكرها التاريخ الذي هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التي أقسمت بشرفها، والتاج الذي يجب احترامه، فقدمتها ضمانًا على صدقها عندما دخلت بلادنا ووعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها، إني لا أطيل شرح عيوب الاحتلال فقد شرحت ذلك مرارًا، ولكني أسأل ضمائركم الحرة أن تكونوا أصوات عدل في المسألة المصرية، فإننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا، كما تجدون منا إلى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير، ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التي أودعتموها نفس أمير مصر[1]، ألا وهي روح الحرية واحترام إرادة الشعب. وفي الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذي أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين».

وقد رد عليه المسيو «رزنر» بخطبة كلها عطف وتأييد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم، وأمل لمصر مستقبلًا عظيمًا.

(١) يشير بذلك إلى أن الخديوي عباس تلقى علومه في النمسا.

رحلته إلى بودابست (مارس وإبريل سنة ١٨٩٧م)

سافر المترجم من فيينا إلى بودابست عاصمة المجر يوم (الجمعة ٢٦ مارس) وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمساويين ممن ضمنهم إلى صف المسألة المصرية، وما أن وصل إلى بودابست حتى وجد في انتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة، وهي عائلة الكونت (كرونزوت)، وكانت مدام جولييت آدم واسطة التعارف بينهما، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة في دارها بضواحي بودابست، وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرافها ونبلائها، فاتصل بكثير من السياسيين والصحفيين في هذه العاصمة الكبيرة، وأوجد بها جوًّا من التأييد والحب لمصر، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التي يضرب بها الأمثال في قوة العقيدة والثبات في الجهاد، ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، ومجدت في شخصه الوطنية المصرية.

في برلين (إبريل سنة ١٨٩٧م)

ثم سافر إلى برلين في (٥ إبريل سنة ١٨٩٧م)، وقابل لفيفًا من الصحفيين والسياسيين ممن تعرَّف بهم من قبل، أو عرفهم في هذه المرة، ودار بينه وبين جريدة (برلنر تاجبلاط) الشهيرة في (٧ إبريل) حديث عن شئون مصر؛ إذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية في مصر.

فأجابه المترجم: «إنها حالة فوضى عامة في إدارة البلاد وقلق شديد في نفوس الشعب المصري، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم -كما يوجد بينهم وبين الإنجليز- هاوية عميقة جدًّا، فإن حكومة بلادنا -ورجالها من صنائع الإنجليز- تعمل في مصر كل ما ينافي رغبة الأمة، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية في مصر إجراء إصلاحات في الإدارة والتعليم، والحكومة بدلًا من أن تذعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدنة كانت تقابل المجلس باللوم

وبكل خشونة، وتجري ضد رغائبه ومطالبه، والعامل المؤثر في ذلك معاضدة الإنجليز، فأصبحت الأمة المصرية اليوم لا تحترم حكومتها».

وأفاض في دسائس السياسة الإنجليزية منذ الثورة العرابية إلى ما بعد الاحتلال، وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة في ذلك الحين، وجرى اكتتاب للجيش العثماني في مصر، فسأله المكاتب في ذلك، فقال:

«إنه وإن كان المصري لا يعرف إلا وطنًا واحدًا وهو مصر، فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها؛ لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز».

وشرح هذه الفكرة بإسهاب في مقالة نشرتها له جريدة (برلنربوست نخرختن) الألمانية قال فيها: «إن أهم معنى سياسي لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثماني، هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الإنجليزي، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس إنجلترا في الشرق ترمي إلى امتلاك وادي النيل، وأن الإنجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والخديوي، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية، آملين أخذ مصر وبلاد العرب وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله، وسواس أوربا لا يجهلون مطلقًا أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الإنجليز على احتلالهم وادي النيل».

في باريس

ثم ذهب إلى باريس في (إبريل سنة ١٨٩٧م)، فألفى في صحافتها حركة معادية لمصر لمناسبة الحرب بين تركيا واليونان، وذلك على إثر مقالة نشرتها جريدة (الإجيشيان جازيت) ونقلتها عنها جريدة (الليبرتيه) كلها طعن في الفقيد وفي الحزب الوطني، وقد عزت إليه وإلى أعضاء حزبه السعي في إثارة الخواطر في مصر ضد الأوربيين والتحريض على إحداث ثورة.

فبادر إلى إحباط هذه الحركة بكتاب نشره في جريدة (الليبرتيه) ذاتها، كذب فيه مزاعم الإجيشيان جازيت، ونفي عن المصريين تهمة التحريض على إحداث قلائل واضطرابات ضد الأوربيين، وقد علقت جريدة (الليبرتيه) على هذا الكتاب بقولها:

«نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التي شوهها الإنجليز، والتي تنطق بها كلمات هذا الوطني المصري الكبير الذي نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولكل غيور على الحق الذي نحن من أنصاره».

عودته إلى مصر

ثم عاد إلى مصر يوم (١٢ مايو سنة ١٨٩٧م) ووافقت عودته يوم عيد الأضحى وانتصار الجنود العثمانية في الحرب اليونانية.

اقتراحه على تركيا

اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل إلى باشكاتب المابين تلغرافًا بالتهنئة بعيد الأضحى وبانتصار الجيش العثماني، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوربا لعقد الصلح جلاء الإنجليز عن مصر، مقابل جلاء الجيش العثماني عن بلاد اليونان، وقد كان هذا الاقتراح آية في الوطنية؛ إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف، وكتبت جريدة (الفارد السكندري) اليونانية تعليقًا عليه اتهمت فيه الفقيد بكراهيته الشديدة لليونان، واستندت إلى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية في (تساليا) ما دام الإنجليز في مصر، فأرسل إلى جريدة (الفارد السكندري) ردًّا على مقالها كتابًا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧م نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه، وتساءل: لماذا تتدخل أوربا في المشكلة التركية اليونانية، ولا تتدخل في المسألة المصرية؟! وقال: إن الدول الأوربية التي تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد

اليونان، يجب عليها أيضًا أن تجبر إنجلترا على الجلاء عن مصر، وعقب على ذلك بقوله مخاطبًا مدير جريدة الفارد السكندري (وهو من كبار اليونانيين) قائلًا: «هذا هو رأيي وهذا هو فكري، ولعله لا يرضيك، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا؛ ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك. فأنت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه، لا لغير وطنه».

خطبته بالإسكندرية (٨ يونية سنة ١٨٩٧م)

وقد رأى من الصحف الأوربية المحلية حملة شعواء على الأمة المصرية؛ لما أبدته من العطف على تركيا في الحرب اليونانية، فاعتزم إلقاء خطبة في الإسكندرية دفاعًا عن موقف الأمة من هذه المسألة وتوضيحًا لعلاقة مصر بتركيا.

ألقى هذه الخطبة يوم (٧ يونية سنة ١٨٩٧م)[١] بمسرح زيزنيا في اجتماع حافل حضره ألفان من صفوة القوم من الإسكندرية والأقاليم، وبعض النزلاء الأجانب، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والهتاف، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصي بالوطنية والإخلاص لمصر، ومحاربة اليأس واستثارة روح الكرامة والإباء في نفوسهم، ودعا إلى البذل والتضحية في سبيل مصر، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين والأقباط، وحبب إلى الشباب الإقبال على الحياة الحرة، والإعراض عن الوظائف، وأهاب بسراة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومي في أرجاء مصر، ونفى تهمة التعصب الديني الذي نسبه خصوم مصر إلى المصريين بسبب اكتتابهم للجيش العثماني في الحرب اليونانية التركية، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلًا:

(١) «المؤيد» عدد ٩ يونية سنة (١٨٩٧م).

«إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزي، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الإنجليز في مصر».

إلى أن قال:

«نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية: لماذا غير الإنجليز سياستهم نحو تركيا من سنة (١٨٩٣م)، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا؟ ثم ضرب مثلًا بصداقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم إيواء تركيا أحرار المجر في بلادهم».

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين إصدار قرار بالاحتجاج على الاحتلال الإنجليزي أشد الاحتجاج، وبالإعراب للنزلاء الأجانب عن عواطفهم الودية نحوهم، وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معهم في سلام، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الأوربية الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر واستقلالها، فوافق الحاضرون بالإجماع على هذا القرار.

وقد كانت هذه الخطبة فوزًا كبيرًا للفقيد، وأسهبت الصحف الوطنية والأوربية في وصف الاجتماع، وطيرت الشركات البرقية نبأ الخطبة إلى الخارج، قالت جريدة (الفارد السكندري) في هذا الصدد ما يأتي: «قد اندفع الناس أفرادًا وجماعات لسماع الخطبة التي ألقاها حضرة الفاضل مصطفى أفندي كامل في مسرح زيزنيا عن المسألة المصرية، فكنت ترى هذا الملهى الجميل الكائن بشارع باب شرقي يموج بالأهالي من لابسي الطرابيش وحملة العمائم مزدحمين في المقاعد والألواج، أو وقوفًا على

الأقدام، جائلين بين المنافذ والأبواب، حتى كان الزحام شديدًا، فلم يخل منه مدخل التياترو، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى أفندي كامل ووقف على المسرح، فقوبل بتصفيق شديد، وقدمت له عدة باقات من الأزهار، وشاهدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعها قدمت له باسم أهل الإسكندرية، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعة ونصفًا بين تصفيق شديد كان يدوي في نهاية كل جملة، وكان التصفيق يمتد في بعض الأحيان حتى يضطر الخطيب إلى الانقطاع عن الكلام، أمَّا صوته فحسن جهوري، ذو رنة قوية، لذلك كان يسمع من كل أرجاء الملهى، حتى أن كل من في هذا الجمع العظيم على كثرته استطاع أن يعي كل أقوال الخطيب التي كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة.

وكتبت جريدة (الوطن)[1] تحت عنوان (الخطباء في مصر) مقاله طويلة جاء فيها: «قد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطني الماهر مصطفى أفندي كامل؛ لأنه ظهر في المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق، والحث على المحبة والمسالمة، ونقلت قول الفقيد: إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد».

وقال المؤيد تعليقًا على تقريظ الوطن: «قد نشرنا أيضًا ما كتبته جريدة الوطن الغراء في هذا الصدد، وهو ليس من قبيل تقريظ الخطيب؛ بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة والوطنية».

وكتب الفقيد إلى مدام جولييت آدم يصف النجاح الذي لقيه في هذا الاجتماع ويدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حيال تركيا، وقال:

---

(١) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد، عدد ١١ يونية سنة (١٨٩٧م).

«الإسكندرية في ١٢ يونية سنة ١٨٩٧م

سيدتي المديرة المبجلة:

لا بد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التي كانت يوم الثلاثاء الماضي، والتي ما كنت أنتظر وقوعها من مواطني لعظيم جلالها؛ ذلك أنه لم تكد الصحف تعلن عن الخطبة التي ألقيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك في هذه المظاهرة التي حضرها أكثر من ألفي مصري، وقد وافقوا بكل سرور، وهم محقون في هذه الموافقة على ما عرضته عليهم أخيرًا من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء، وإن الأوربيين حتى اليونانيين منهم لمرتاحون إلى تلك المظاهرة وهذا القرار، إنك تعلمين خطتي نحو تركيا، وما أراه واجبًا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز».

وإني لا أرتاب في أن حياة الأمة المصرية النضرة التي تجلت للعيان ستملؤك سرورًا، ولذلك كتبت إليك هذه الكلمة، وأنا أؤمل أن تتفضلي بإفراد مقالة في المجلة أو في غيرها للوطنية المصرية».

سفره إلى أوربا (يونية سنة ١٨٩٧م)

ثم سافر من الإسكندرية يوم (٢٦ يونية) إلى أوربا ليواصل جهاده بها، فوصل إلى الأستانة يوم (٢٩ يونية)، ونزل بفندق (سمر بالاس) بترابيا على البوسفور، وقصد إليه كثيرون من رجال السياسة الأوربيين، وفي مقدمتهم مراسلو الصحف الأوربية والإنجليزية، وأخذوا يستوضحون آراءه في المسألة المصرية.

وبعد أن قضى أسبوعًا في الأستانة سافر إلى بودابست فوصلها في (٧ يولية) ورحبت به صحفها أحسن ترحيب.

ذكرى ضرب الإسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول الإنجليزي (١١ يولية سنة ١٨٨٢م) فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال إلى اللورد سلسبري رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين، قال فيه:

«بودابست في ١١ يولية سنة ١٨٩٧م

جناب رئيس الوزارة الإنجليزية

إني في هذا اليوم (١١ يولية) الذي هو التذكار الخامس عشر لضرب الإسكندرية أرى من الواجب علي تذكير جنابكم بالوعود التي قدمت باسم التاج الإنجليزي والشرف البريطاني للجلاء عن وطننا، وإذ كانت مصر محتلة ظلمًا وعدوانًا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهي تعتبر يوم (١١ يولية) هذا تذكار حداد لها وتذكار عار لإنجلترا، وما دام الاحتلال الإنجليزي باقيًا فهذا العار يحمله كل فرد من الإنجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع»[1].

مصطفى كامل

وقد أبلغ نص هذا التلغراف إلى الصحف المجرية، مع شرح وإيضاح للمسألة المصرية، وكتبت الفصول الضافية دفاعًا عن مصر وتعريفًا بشأنها في العالم.

كتبت جريدة (بستر لويد) في هذا الصدد:

«إنا نحن المجريين الذين توارثنا في دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذي نسميه بحق (كوشوت مصر)، ونسأل دول أوربا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية بإجبار الإنجليز على الجلاء عن مصر وتركها

(١) «المؤيد» عدد ١٩ يولية سنة (١٨٩٧م).

لأهلها؛ لأنه من العار أن تظهر أوربا المتمدنة بمظهر الكا ذب في سياستها أمام الشرق، إن مركز مصر ليس كمركز أي بلد شرقي آخر، فهي مصدر فوائد كثيرة للعالم، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى».

وقالت جريدة (مار جيانوك لابجا):

«إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطني بالوطني، ونقول للإنجليز: إنكم تحسنون كثيرًا إلى أنفسكم بالجلاء عن مصر عن قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم في البقاء فيها، وإن بلدًا مركزه كمصر لا يصح أن يكون في يد دولة واحدة، وأملنا كبير في أن مصلحة الدول المشركة في مصر تحمل الحكومة الإنجليزية على الوفاء بوعودها، وإنا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع، فلا بد من جلائه يومًا من الأيام، ولذلك لا يصح أن ييأس المصريون من تحرير بلادهم، ما دام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطني المشتعل وطنية وحبًّا لبلاد الفراعنة العظيمة».

وكذلك كتبت الصحف النمساوية تؤيد مطالب المصريين.

صدى جهاده في أمريكا

تردد صدى جهاد الفقيد في الصحف الأمريكية، فنشرت جريدة (نيويورك هرالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها:

«إن العالم المتمدن يسمع في هذه السنين الأخيرة صوتًا رنانًا وطنيًّا من الشرق، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) هذا الصوت الذي أسمعه بكل انشراح وأقرؤه بكل إمعان، ومما يدهش أن الصحافة الأوربية عامة والإنجليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصيًّا بمأرب غير وطنية، وقد أردت بما أكتبه في جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطني المحبوب، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة في المسألة المصرية،

يقول مصطفى كامل: إنه مصري، ونحن لا ننكر عليه ذلك، ويقول: إنه يدافع عن بلاده طالبًا وفاء الإنجليز بوعودهم، سائلًا أوربا أن تساعده على تحقيق أماني مواطنيه، ونحن بإزاء هذا القول يجب علينا أن نقول: (إنك صادق في دعواك ولا نسألك إلا انتظارًا) لأن إنجلترا بمهارتها تخلق كل يوم ما يبعد عنها المناقشة في المسألة المصرية التي ليست في الحقيقة إلا مسألة الهند أولًا ومسألة الشرق ثانيًا، فهذا الطريق -أو بعبارة أخرى قناة السويس- لم تحفر لتكون وقفًا على الإنجليز؛ بل لتكون طريق رحمة تجارية للعالم كله.

خلقت إنجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر للروسيا في الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيرًا عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطاءها حقها بين الأمم الحرة التي تتقلب في نعيم بينما هي تعاني آلامًا جسامًا.

إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية في مصر، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيل حالتي الوطني للناشئين (حالة الشقاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل.

وإذا سأل الإنجليز (مصطفى كامل): أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على إنجلترا وتملك مصر؟

فالجواب عندي عند ذلك: أن بواخر مصر هي نيلها، وأسلحتها إرادة أبنائها، وذهبها جمال وضعها، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المزايا من العلم دروعًا، ولينازلوا الإنجليز بثبات الساكن الصابر، فإن قائد السفينة في حاجة لعقل سليم وجسم سليم ليقود سفينته، وإلا فهي بغيرهما غارقة. إن الوطن بيننا نحن الأوربيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والولد والمال، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود ألا نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟».

وقد علقت جريدة (نيويورك هرالد) على هذه الرسالة بقولها: «إن غرض مصطفى كامل شريف، وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته، ومن عرف أنه ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا: إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السددا؛ وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لانحطاط مستواهم العلمي، فإنا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا بالأستانة في العام الماضي لا يقل علمًا عن أعظم سياسي من ساسة أمريكا وأوربا؛ ولكن لسوء حظ مصر جاء في الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغًا عظيمًا، فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق، لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة، ولكننا مع ذلك نقول له ما قاله المسيو «سيمون»: «إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن في سبيل تحرير الوطن لخير من لا شيء». فليسر مصطفى كامل ومواطنوه إلى حيث يجدون بعون الله «مصر رمسيس» سيدة مهيبة».

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه في أوربا وأمريكا، ولا شك أن تعريف أوربا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه إلى جهاده بقلمه ولسانه في الصحافة والمحافل الأوربية، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسألة المصرية تعليقًا على دعاية الفقيد يدرك مبلغ الاحترام الذ ي نالته بفضل هذه الدعاية الكبيرة التي قام بها ذلك الرجل العظيم.

في فيينا وباريس

مكث المترجم في مدينة بودابست حتى (٢٣ يولية سنة ١٨٩٧م)، وسافر منها إلى فيينا، وهناك واصل دعايته للقضية المصرية، ثم برحها إلى باريس، فجاءها في أغسطس وبادر بإمداد الصحف والأندية بآرائه في الشئون المصرية ودفاعه عن

قضية مصر، فبدأ حملته بحديث مستفيض في جريدة (الإكلير) الباريسية حمل فيه على السياسة الإنجليزية وتصرفاتها في مصر.

كان لهذا الحديث صداه في النفوس، فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (إدوار فلدتوفل) ينتقد السياسة البريطانية في مقالة نشرها بجريدة (لابيه) تعليقًا على حديث مصطفى كامل، وأيده في آرائه، وكذلك كتبت جريدة (الدبيش كولونيال) مقالة في هذا المعنى.

خطبته بباريس (ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م)

ألقى الفقيد بباريس يوم (أول سبتمبر سنة ١٨٩٧م) خطبة من أقوى خطبه الوطنية في حفلة أقامها في الفندق النازل به، دعا إليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ بباريس، بدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثماني في الحرب اليونانية، ثم عرج بذكرى (١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م)، وهو يوم دخول الإنجليز القاهرة، فقال مشيرًا إلى هذه الذكرى مستحثًّا المصريين على الجهاد الوطني:

«هناك تذكار آخر أراه قريبًا منا وأشخصه أمام عيني مكتوبًا بحروف الحداد؛ ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل، التذكار الخامس عشر لدخول الإنجليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة، نعم أرى هذا التذكار وأحس آلامًا شديدة لذكراه، آلامًا تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور، فالبسوا ثياب الحداد في ذلك اليوم، واندبوا حظ بلادكم التعسة، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفاني في سبيل خلاصها».

الدعوة إلى الجهاد الوطني

«فمن كان وطنه وادي النيل عارٌ عليه أن يسلمه لسواه، ويعيش حقيرًا ذليلًا غريبًا في بلاده، أجنبيًّا في ربوع آبائه وأجداده، ولطالما ردد الفلاسفة أن كلمة الحق

تصل إلى آذان الأفراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون، فنادوا إذن بتحرير الوطن المصري، فإن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غدًا بمشيئة الله.

ولا تظنوا أيها الإخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لإخراج الأجنبي من ديارها، فقد يظن الكثيرون في مصر أن الذي لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه يكون بريئًا من مصائبه غير مسئول عن الأخطار التي تتساقط عليه، كلا إن الذي يرى النار بعينه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها هو شريك في الإثم لمن سعرها، فكيف بنا ونحن نرى الأجنبي يعتدي على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا، ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلنا، ويحسن للحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا. ألا إن الحياة الذليلة خير منها الموت، والموت في سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة».

الشباب والشيوخ في الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب في الجهاد الوطني فقال:

«وإذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة، فلا جرم أننا إذا أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائها من بعدنا، فلقد سلمنا آباؤنا مصر وفيها بقية من حياة، فهل يليق أن نسلمها لأبنائنا ميتة لا حراك فيها؟ إن مصر كعليل أنتم تعرفون دواءه فقدموه لها ولو قطعت أيديكم بالسيوف ومزقت أفئدتكم بالخناجر، ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم إلى أفئدتكم وتساءلتم من المسئول عن إحياء مصر، أهم الشيوخ أم الشبان؟ أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم، أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادئ الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة، ورأوا غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحي في سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز؟ لا ريب أن ضمائركم تجيبكم أنكم وحدكم أنتم -أي كل رجال الشبيبة المصرية- المسئولون عن إحياء مصر، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم».

الإشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا إلى اعتبارها فرضًا على كل مصري، صغيرًا كان أو كبيرًا، وضرب الأمثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطانها، فقال:

«ولا يرينَّ أحدكم نفسه صغيرًا فيقول: ومَن أنا حتى أدافع عن بلادي وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها؟ فذلك فكر خطأ، فكل مصري مسئول عن حالة مصر، ولكل مصري الحق في خدمتها؛ بل عليه واجب إنهاضها وإعلاء شأنها، وجميع المصريين أمام مصر سواء، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين، وقد جاءنا التاريخ بالأمثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الأعمال وأشرفها، وأرانا التاريخ فتاة هي (جان دارك) قد حررت فرنسا وطنها وأخرجت الإنجليز من ربوعه، وهذا (كوشوت) محرر المجر؛ بدأ صغيرًا لا مقام له في بلاده ولا مكانة، ولكن وطنيته الطاهرة، وفؤاده المتقد غيرة على وطنه، وخلوه من الغرض الشخصي، جعلته في تاريخ بلاده وفي تاريخ الأمم رجلًا من عظماء الرجال، وقدوة كبيرة في تحرير الأوطان، والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلى أسمى المراتب بوطنيتهم الصادقة وإحساساتهم السامية».

محاربة اليأس

«فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم، ولا تيأسوا طرفة عين؛ بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر، شأن ذوي النفوس الشريفة والمقاصد العالية».

الوطنية والحياة في أوربا

«وإني لست في حاجة لأن ألفت أنظاركم إلى ما ترونه في أوربا من مظاهر الوطنية الجليلة، ومن معالم الحياة الحقيقية، فهذا العمران العظيم ناطق بأبدع بيان بأنه من ثمار الوطنية، وكل ما في هذه الديار من عدلٍ ونظامٍ، وحرية واستقلال،

ونعيم عظيم، وملك كبير، وهو لا ريب من مبتدعات هذا الإحساس الشريف الذي يسوق أفراد أمة بأسرها إلى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد. ولا ريب عندي أنكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذه الوطنية العالية التي رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الأجيال، لا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لأوطانهم، وماتوا مشرفين عالي الأقدار والمقامات، وبقيت أعمالهم دروسًا ومثلًا للأبناء والأعقاب، ولا ريب أنكم أملتم أن يظهر في المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان.

ولا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوربا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبًّا شديدًا، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضيًا مسرورًا.

ومن أجل ما ذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائدًا فرنسيًّا أحس عام (١٨١٥م) باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة، واحتلت عساكر الدول الأوربية المتحدة أرض فرنسا، فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له: إني لي عندك أمرًا أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتي. فقال له صديقه: وما ذاك لي. فأجابه القائد: إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبري وناد بأعلى صوتك: لقد جلا الأجانب عن بلادنا، فنم آمنًا مطمئنًا، عندئذ تسكن روحي ويتم لي الموت بسلام. هذا مثل صغير يكفي وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم.

وإذا كانت فخامة تلك الأمم المتمدنة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أمورًا من شأنها أن تنشطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد، فهناك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين، وأهملنا

أشرف واجب علينا في الحياة، فالهند وراءكم، وأيرلندا أمامكم، تنذركم حالتهما آناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالذل وسلمتم البلاد للمحتلين، فحاسبوا أنفسكم واسألوها: أتفضل العار على الشرف؟ والمذلة والهوان على العز والرفعة؟ والموت على الحياة؟».

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة، وكان لها صدى كبير في مصر وأثر عميق في نفوس المصريين؛ لما احتوت من آيات الوطنية الصادقة، وترجمت عن شعور النفس العالية التي تفيض بهذه المعاني الجليلة.

سفره إلى برلين ثم عودته إلى باريس

وبعد أن كتب الفقيد عدة مقالات في صحف باريس سافر إلى برلين، وأمد الصحف الألمانية بقلمه مما يحتاج نشره إلى مجلدات، ثم عاد إلى باريس، وعاود الدعاية للقضية المصرية في الصحف الفرنسية.

اعتزازه بمصريته

في هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال إلى الدكتور «شيونفرت» الرحالة الألماني الشهير بكتاب زعيم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفي مقدمتهم مصطفى كامل ليسوا من صميم المصريين، وقد كتب العلامة «شيونفرت» كتابًا بهذا المعنى نشره في جريدة (فوسيشه زيتنغ) الألمانية في (٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧م).

فلم يكد يطلع عليه المترجم حتى رد عليه لفوره بالكتاب الآتي تعريبه:

«فيينا في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧م

يا جناب المدير:

اسمح لي أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشرتموه في عدد ٣٠ سبتمبر الجاري في شأن الوطنية المصرية، يدعى مسيو شيونفرت أن المصريين

القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبي، وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة، وقد تكرم حضرته بأن عدَّني من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيدة الأصل عنها؛ أي ممن لا يجري في عروقهم الدم المصري الحقيقي، وهي دعوى باطلة كل البطلان؛ لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية، العاملين ضد الاحتلال الإنجليزي، الساعين في سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقين، وأغلبهم أبناء الفلاحين، أما أنا فأفخر وأتشرف بأني ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون، يظهر إذن جليًّا أننا لسنا من تلك الفئة الغربية الأصل عن الفلاحين، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضي؛ لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا، أما اكتتابنا للجيش العثماني فما هو إلا ثمرة وطنية يانعة صادقة، نعم هو ثمرة الوطنية الحقة؛ لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمي بكل دسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر، وأننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية؛ أي بأجل وأبهى شيء يتمناه كل مصري وطني على الدوام. وإني أختم كتابي للدكتور (شيونفرت) بأني أجله أعظم إجلال؛ غير أني مندهش جدًّا من أن رجلًا مثله يقول عن الفلاح المصري: إنه لا يعنى بشئون بلاده، فإذا كان الدكتور (شيونفرت) يحكم علينا بأننا أجانب عن الفلاح لا ندرك ما بفؤاده، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشئون الوطن؟ هذا وتفضل بقبول احترامي».

مصطفى كامل

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه:

«إنَّ على هذا الكتاب طابع الحق والإخلاص، ونحن لا نشك في أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيه، ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا ما علق بأذهانهم من كتابه، فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار، وهو أدرى بما فيها، وعلى الأخص ما يخصه منها».

عودته إلى مصر ومرضه (أكتوبر–نوفمبر سنة ١٨٩٧م)

عاد مصطفى كامل إلى مصر، فبلغ العاصمة يوم (١٠ أكتوبر) واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والإعجاب.

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من إجهاد نفسه في العمل والكفاح، فأنهك قواه، وأقلق بال إخوانه وأنصاره، فنصح له الأطباء أن يقضي الشتاء في حلوان؛ فعمل بمشورتهم وقصد إليها حتى أبل من مرضه في أواخر شهر نوفمبر، فعاد منها سليمًا معافى، واستأنف جهاده الوطني والسياسي، وكتب إلى شقيقه علي بك كتابًا يصف فيه مرضه، ويقول فيه:

«الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧م

أخي؛ لا شك أنك قلقت كثيرًا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتي؛ لأني منذ ثلاثة أشهر لم أكتب إليك كلمة. إني كنت في مرض شديد، يئست معه من حياتي، وقد أصابني بعد وصولي إلى العاصمة بيومين، وهو مسبب عن كثرة المتاعب التي صادفتها في هذا العام، التي أؤمل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لي في شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها ورجوع السيادة فيها لأبنائها المخلصين».